قصة قصيرة

هـــي

قيام محمد

لا بدّ وأنه الخريف. . الدفء الشجي ينفجر مرة واحدة. . النهر والأشجار الكبيرة والشبان الصغار المبثوثون في الطرقات مثل نقاط ذهبية تزين لوحة معتمة لرسام مشهور. . حتى نافذة غرفتها الصغيرة المطلة على الشارع الساكن بدت مغطاة بالأوراق اليابسة المتساقطة من شجرة التوت العالية التي تلتصق بها وتحجبها مثل ستارة.

الحياة أعلنت استسلامها لهذا الزائر المقتحم دون استئذان. . .

المرأة الكهلة البدينة تحشر جسدها فوق ساقيها على الأرض بين كرسيين في الجهة المقابلة لي تماماً. . تقرّب فنجان القهوة من عينيها الغائمتين. . تلوي شفتها السفلى وتدفن سبابتها اليسرىٰ تحت شعرها الأحمر وتهرش. .

توهمتُ أن ذهولاً يفترس برود وجهها يجعل ملامحها تتململ وهي تراقب خطوطاً سوداء متشابكة تلتصق على جدران الفنجان الداخلية مثل ديدان شريطيه محنطة، بينما كانت عيناي تقفزان خلف الورود الحمراء الذابلة المنثورة على ثوبها الفضفاض والذي يغطي جسدها مثل عباءة.

ـ أنتِ حامل. . .

«قالت العجرية بصوت حاد ذي جرس»

ـ أبداً. .

«ضحكتُ بسخرية وأنا أنظر في عينيها بشماتة ثم أردفتُ: ـ

ـ إذن. . ماذا؟

ـ أنت تحملين حجراً ثقيلاً ليس ثمة ما يشبهه.

«تحسستُ بطني وأنا أتظاهر بالفزع». . .

فهمتْ حركتي فاستدركتْ مصوبة كلماتها مثل القذيفة نحو صدري. .

ـ إنه في قلبكِ، يكتم أنفاسك. . انظري. . ها هو. . حجر غريب لم أرَ مثله في حياتي. .

«احتقنتْ وجنتاي وتشنجتُ. . هكذا أحسستُ وأنا أقترب منها بتردد. . شيء ما كان يخيفني. . لعله وجودها الملحّ الذي لم أكن أرغب فيه. . أم لعله الرنين الحاد في صوتها كأنه صفارة قطار. . أم لعلها رائحتها المتميزة الخانقة».

سحبتُ نفساً طويلاً وتطلعتُ إلى الديدان الطويلة المحنّطة على جدران الفنجان الداخلية. . لم أفهم. . سبابتها تؤشر مثل سبابة معلم مدرسة. . الأخرى تهرش تحت شعر رأسها. .

ـ فنجان غريب. . الحجر ثقيل يحاصر صدرك وأنتِ تتنفسين بجهد. . قلبك مفتت مثل زجاج مسحوق بين حجري رحىٰ، انظري. .

هنالك شخص يتعلق بك مثل روحك. . لا أدري رجل هو أم امرأة. .

أظنها امرأة. . نعم امرأة. . ها هو شعرها الطويل. . إنها تحبك كثيراً، انظري: «اصبعها يطول ممتداً أمام نظري كما تمتد السكة الحديد تحت عجلات قطار». .

ـ إنها تحاول أن تحمل الحجر عنك. .

ـ هل استطاعت يا ترى؟

«قلتُ بنفاد صبر»

ـ نعم. . نعم وأقسم على ذلك. .

وقفتُ أمام المرآة ألقي النظرة الأخيرة قبل أن أغادر غرفتي إلى الخارج. . . كانت هنالك أغنية حزينة ترتفع من

مذياع صغير يستكين قرب سريري . . ظننتُ للوهلة الأولى أنها تسرتفع من مكان ما في قلبي . . . تطلعتُ إلى عينيّ الطويلتين المرسومتين بالكحل الأسود، كانتا مبللتين بطبقتين لامعتين رقيقتين من الدموع . .

وفجأة . . .

وأنا أرتب خصلات شعري الهابطة فوق جبيني اصطدمت أناملي بعينيّ . . اقشعرّ بدني، تصببتُ وعلاني البرود والاضطراب . .

لا . . لم أصطدم بعينيّ فقد كانت عيناي متسمرتين في مكانهما بوضوح . . إنه شيء آخر، رخو ينبض بالحياة والحرارة . . شيء يشبه العينين يختبىء تحت خصلات شعري .

لما مددتُ يداً مرتجفة لأتحسس جبيني وأبعد ما بين خصلات شعري . . رأيتهما . .

نفس عينيّ الحزينتين تختفيان بين جذور الشعر أعلى جبيني بالضبط .

آنذاك أحسستُ أن قدميّ تنغرزان في بحر من رمال . . تطلعتُ إلى وجهي من جديد بعد أن رفعتُ شعري بشريط، أردتُ التأكد فتأكدت . . كانت هنالك أربع عيون سود ملتمعة مرسومة بالكحل الأسود تطالعني بتحدٍ وأنا أخوض وسط أمواج البحر الرملي . .

ـ لا شك أنني مريضة جداً . .

«غمغمتُ بصوت ضعيف» .

تهاويتُ على الأرض منكمشة مثل طفل يتوجع . . أمام عينيّ تماماً وفي نقطة ثابتة حملقتُ إذ تراءت لي المرأة الغجرية ساطعة مثل الحقيقة، رأيتها جالسة وسط خيمة مطرزة بورود ذابلة مثل بقع الدم المتيبّس، ترفع فنجان قهوتي نحو شعاع الشمس المتسرب في ثقوب صغيرة تتخلل وريقات الورود الذابلة تومىء لي أن اقتربي، عيناي تلاحقان اصبعها الأسمر الطويل الممتد كأنه ظل نخلة . . تخوض وإياه في متاهة من الديدان الشريطية المحنّطة . . .

صوتها يزعق في أعماق الذاكرة حاداً مثل صفارة :

ـ «إنها تحبكِ . . تحمل حجر الهمّ عنكِ» .

ويكفّ الشجن الخريفي عن الشدو . . وتصمت أغنية الحزن التي رددتها مع نفسي . .

ـ لا يمكن أن أخرج للشارع فيراني الناس وهذه العيون الغريبة تتعلق تحت خصلات شعري . . «تساءلتُ مع نفسي» . . ثم أخذتُ أجاهد ضد الارتجاف الذي غمر جسدي مثل رداء ضيق خشن الملمس . . . تشتت أنفاسي وبدأت تجوس في أنحاء الغرفة حتى غرقت فيما يشبه الحلم . . راقبتُ الزمن وهو يتوقف وكانت عينان سوداوان طويلتان نديتان مرسومتان بالكحل تتواثبان وخلفهما تركض نظراتي . . تحطّان فوق وجه امرأة في مثل عمري تطلع من المرآة بهمّة وحيوية . . تلتصقان تحت حاجبيها . . تكلّلهما خصلات من الشعر كأنها خصلات شعري . .

كان هذا أكثر مما قدرتُ على احتماله فاحتميتُ منه بصدر غيبوبة طويلة بقيتُ فيها لستُ نائمة ولستُ يقظى أرقب المرأة الشابة أمامي وهي ترتّب من وضع عينيّ فوق وجهها وتجعّد شعرها الطويل وتتحسس طيات الثوب الحريري الأبيض تحت خصرها .

نظرتُ إليها طويلاً ثم إلى المرآة الشاحبة العارية أمامي حتى تضبّبتا وأصبحتا شبحين رقيقين وبدأتا بالتلاشي . .

يزعق صوت الغجرية الحادّ في رأسي :

ـ «أظنها امرأة . . بل هي امرأة، انظري إلى فنجانك، ها هو شعرها الطويل . . إنها متعلقة بك مثل روحك . . » .

أجهدتُ جسدي حتى جعلته يتحرك . . كان الذهول يتلبسني . . لو بقيت دقيقة أخرى أنظر إليها لفقدتُ عقلي . . سحبتُ عينيّ وكانتا تتسلقان قامتها وتحطان فوق شفتيها، تساءلتُ :

«هل من الممكن أن أسمع صوتها؟ . . لم أجازف وأمدّ يدي لأتحسسها مع أن رغبتي في ذلك كانت مجنونة . .

حين بدأت البحث عن سلسلة مفاتيحي، امتدت أصابعها . . مترفة رشيقة وبأظافر أنيقة . . امتدتْ إليّ بالسلسلة . . تضرعتُ لها بخوف ودقات قلبي صاخبة، تلقفتُ المفاتيح ووجودها يحاصرني مثل طوفان وهربتُ إلى الخارج . . أركض وأنا أسمع خطواتها هادئة بطيئة، لكنها تتبعني . . كنت ألهث والعرق يتصبّب مني كأنني واقفة تحت رحمة شلال يصفعني تياره كالسوط . .

فتحتُ باب سيارتي . . لم أدهش كثيراً وأنا أرقبها تعدل من جلستها على الكرسي المجاور لي . . جميلة . . بهيّة، فستانها الأبيض يتدلىٰ بأبهة فوق ساقيها . . سحبتُ أطراف ثوبي الأسود المجعّدة والمتهدلة حول جسدي وسحقتها تحت ساقيّ وأنا أقضم شفتي بعنف . . ارتفعت «آه» من حنجرتي دون إرادة مني . . قررتُ أن أهرب . . راحتا كفيّ لزجتان بفعل العرق تلتصقان بمقود السيارة بقوة . . الشارع يركض تحت عجلات السيارة ويئزّ .

لا بد وأنه الخريف وإلّا كيف يمكن أن تغزو الوحشة كل الوجوه وبهذه الصورة المأساوية؟ . . عيناي تتقافزان وهما تحطان على تمثال شاعر بهيئة مهابة وهو منتصب وسط الميدان وأنا صامتة مغتّمة . . أنفاسها تجوس داخل السيارة تسحب مني أنفاسي وتحلقان معاً مثل روحين . . لم يكن أكثر إيلاماً لنفسي من الاحساس الذي انتابني للتوّ . . إحساس المسرع للقاء شخص عزيز مات منذ أمد طويل .

لم أكن أريدها أن تشاركني حياتي.. همومي..

«لن أفرّط بأحزاني»..

خاطبتُ نفسي وأصابعي تمتد متلمسة متانة السور الصخري المغروس حول قلبي.. صخوره باردة مثل جدران زنزانة تطحن بوحشتها أعوام سجينها الشاب عاماً بعد آخر...

التفتُ إليها.. استفزتني ابتسامتها وطمأنينتها فهربتُ إلى المزيد من السرعة.. العربات تمرق من الجانبين ثم تختفي مثل قافلة من الأشباح.. روحي تمردت واختفى هدوؤها الشفاف.. راحتا كفيّ تنضحان عرقاً والمقود يضطرب بينهما.. التعب يتسلل إلى جسدي والأفكار تتصارع في رأسي..

وفجأة..

إذا بانتفاضة عنيفة يصاحبها صوت مفزع يشبه الزعيق بلغ قوتها أني قفزتُ من مكاني ليرتطم رأسي بالزجاجة الأمامية في الوقت الذي فتح به باب السيارة الجانبي لتتلقفني موجة هائلة من الهواء وتسحبني إلى الخارج..

حاولتُ أن أقول لها شيئاً لكنني لم أستطع فقد كنت غارقة في النهاية..

تراكضت سيقان طويلة وتشابكت حول جسدي الممدد بلا حراك...

قبل أن أغمض عينيّ رأيتها..

نزلتْ من سيارتي، دارتْ نحو باب السائق وكان مشرّعاً، احتلّت مقعدي الخاص.. أغلقت الباب، عدّلتْ من خصلات شعرها..

دهشتُ.. كأن الاصطدام كان وهماً أو حلماً...

التفتت إليّ، نظرتْ بعينيّ الطويلتين الندیتين المرسومتين بالكحل..

نظرت إلى عينيّ المغمضتين المرميتين على الشارع مثل قطعتي حجر...

ابتسمتْ وهي تنفض عن ثوبها الأبيض الجميل غباراً وهمياً ثم أدارت المفتاح...

العراق/ بغداد

صدر حديثاً

العالم والعرب
عام ٢٠٠٠

نظرات مستقبلية في بروز القوى والاتجاهات العالمية الجديدة وتأثيرها على المصير العربي في القرن الحادي والعشرين

تأليف

الدكتور محمد جابر الأنصاري

منشورات دار الآداب